مقدمة المؤلف

بدأ الأمر كله في زيورخ عام ١٩٨٧ باقتراح من المرحوم مسعود أحمد الجهلمي.. الذي كان في ذلك الوقت المشرف والمسؤول عن مركز الجماعة الإسلامية الأحمدية في سويسرا. وقد اقترح على البروفيسور الدكتور كارل هينكينغ (Karl Henking) الأستاذ في مادة علم طبقات الأمم أو ما يسمى بعلم أجناس البشر بجامعة زيورخ.. أن يوجه الدعوة إلى إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية العالمية لكي يتفضل بإلقاء محاضرة عن الإسلام، وعن موضوع لم يتناوله أحد من علماء الدين من قبل على منبر الجامعة.

كان رد فعل البروفيسور سلبيا بعض الشيء في أول الأمر، إذ كان من رأيه أنه ليس لدى طلبة الجامعة أي اهتمام بالدين، بل في الواقع إن معظمهم يتباهون بكونهم ملحدين ولا يكادون يعيرون الدين أي احترام بشكل عام. غير أنه بعد بضعة أيام.. اقترح البروفيسور نفسه على مسعود أنه إذا تم تغيير الأمر وصار الموضوع يعالج مسألة العقلانية كموضوع رئيس للمحاضرة.. وأضيف موضوع الوحي بطريق المقارنة، لكي يتبين كيف يقوم كل من الاثنين بدور حيوي يؤدي إلى المعرفة والحقيقة الأزلية، فعندئذ ربما يثير مثل هذا الموضوع اهتمام طلبة الجامعة. وقد أثبتت الوقائع التي حدثت فيما بعد أنه كان على حق.

وفي يوم الخميس.. الرابع عشر من شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٨٧ في الساعة الثامنة والربع مساء، أُلقيت المحاضرة المقترحة تحت عنوان: العقلانية، الوحي، المعرفة، والحقيقة الأزلية. وكان عنوان المحاضرة قد أثار اهتمام الطلبة الذين ازدحموا في قاعة الاجتماعات الكبرى التي تسمى "أوول" في الجامعة، والتي سرعان ما امتلأت تماما حتى لقد استدعى الأمر

تخصيص قاعة إضافية لاستيعاب الأعداد الزائدة من الطلبة لمتابعة المحاضرة عبر شاشات التلفاز الداخلي.

وبالمناسبة.. كانت هذه هي نفس القاعة الكبرى التي ألقى فيها السير ونستون تشرشل خطابه التاريخي في التاسع من سبتمبر (أيلول) عام ١٩٤٦، بعنوان: "فلتنهض أوربا". وفي الواقع.. كانت هذه المحاضرة النواة الأولى التي أنبتت السوق الأوربية المشتركة الموجودة اليوم. و لم يكن تشرشل في ذلك الوقت رئيسا لوزراء بريطانيا العظمى، غير أن عظمته لم تكن محصورة في المنصب الذي شغله، وإنما ازداد ذلك المنصب عظمة حين شغله ذلك الرجل. ولا غرْوَ أن محاضرته كانت حدثا تاريخيا.

ولما حان موعد محاضرتي في التاريخ المحدد، بدأت بتقديم بعض الملاحظات باللغة الإنجليزية، ثم تبع ذلك إلقاء المحاضرة التي كتبتها أصلا باللغة الأردية، والتي تولى الشيخ ناصر أحمد ترجمتها ترجمة رائعة إلى اللغة الألمانية، واستغرق في إلقائها حوالي خمس وسبعين دقيقة. وفي النهاية تم دعوة جمهور المستمعين لسؤال ما يعنّ لهم من أسئلة. وحيث إن الأسئلة كانت موجهة لي، فقد تولى الشيخ ناصر أحمد القيام بدور المترجم. كانت أحداث تلك الليلة مثيرة مفيدة للجميع حيث امتد الاجتماع لمدة ساعتين ونصف الساعة، ومع ذلك فقد ظل اهتمام الطلبة على أشده إلى أن اقتضى الأمر إنهاء الاجتماع في الساعة الحادية عشر إلا ربع مساء حيث إن نظام الجامعة كان يقتضي إخلاء القاعة في ذلك الوقت.

هكذا تم زرع البذرة الأولى لهذا الكتاب. وهي لم تكن سوى بذرة على أية حال، لأن المحاضرة التي تم ترجمتها إلى اللغة الألمانية لم تغط معظم النقاط التي احتواها الأصل الأردو. وأيضا بسبب ضيق الوقت لم يتمكن الشيخ ناصر أحمد من قراءة المحاضرة التي قام بترجمتها إلى نهايتها.

وقد تمت الكثير من المحاولات خلال الأعوام التالية لإتمام ترجمة مسوداتي الأصلية التي كُتبت باللغة الأردية.. إلى اللغة الإنجليزية. وكنت

– فيما بعد – قد أضفت الكثير إليها مما جعلها تتضخم حجما. واستغرقت هذه المحاولات عدة سنوات إلى أن انتهت بعد أن باءت جميعها بالفشل في نهاية الأمر. كان مدار البحث متنوعا حتى إنه لم يوجد واحد من العلماء استطاع أن يقوم بترجمة كل موضوعات الكتاب بالشكل الذي يرضى هو عنه. وقد حاولَتْ ذلك بعض المجموعات من العلماء مشتركين أيضا ولكن بغير جدوى.

وأخيرا.. وبرغم انشغالي بمسؤولياتي العديدة.. تبين أنه من الضروري أن أتولى أنا بنفسي إملاء معظم الكتاب من جديد. وقد تطوع باسط أحمد بتقديم خدماته في هذا الصدد. وهو يعمل حاليا ضمن هيئة تحرير مجلة "مقارنة الأديان" (The Review of Religions) واستطاع بواسطة حاسوبه المحمول أن يقوم بكتابة العديد من النسخ التي كان يتم تغييرها وتعديلها من المواد التي قمت بإملائها عليه. غير أن أيا من تلك النسخ لم يقنع أحدنا بقيمته، لأن الفترة بين لقاءاتنا كانت طويلة في أكثر الأحيان، حتى إن إخراج عمل متناسق بغير تكرار لم يعد ممكنًا. وبالإضافة.. كل مرة يتم فيها إملاء جديد.. كانت تُضاف بعض الأفكار الجديدة، مما يستدعي القيام بالكثير من التعديلات والإضافات والتغييرات في الفصول الأخرى أيضا. وقد بذل جهدا كبيرا ومستمرا لمدة عامين متواليين، بغير شكوى ولا تذمر، حتى إني بدأت أشعر بالألم من أجله، لأنه كان يعاني من بذل الجهد ولكن دون تحقيق فائدة. وكان لا بد من إعفائه من العمل، غير أن جهده وخدماته الغالية ساعدت كثيرا على دفع العمل إلى الأمام وتحقيق الهدف، إذ كانت كل نسخة من النسخ التي قام بإعدادها تبين تقدما كبيرا عن النسخة السابقة.

وبعد باسط.. قامت مجموعة من السيدات باستئناف العمل. وهكذا بدأ العمل يتقدم خطوة بعد أخرى، غير أنه لم يمكن أن يتم في شكل متناسق بغير انقطاع في السياق.

ولم يعد أمامي في نهاية الأمر من خيار سوى أن أعيد كتابة معظم المسودات بيدي، الأمر الذي استغرق مني وقتا طويلا في العام الماضي، تخللته انقطاعات عديدة بسبب المسؤوليات الأخرى الضاغطة. وفي النهاية.. استدعى الأمر أن يراجع العمل كله شخص ذو كفاءة يقوم بفحصه من أوله إلى آخره بحثا عن زلات القلم أو الأخطاء والتكرار الذي يكون قد بقي بغير الانتباه إليه. وقد قامت بتأدية هذا الجهد الشاق والجوهري بأروع ما يكون السيدة فرينة قريْشي، وقام بمساعدتها فريق من العاملات اللاتي كرّسن أنفسهن لهذا العمل، وكنّ يتمتعن بخبرات علمية متنوعة. وقد استطعن بجهدهن المشترك وتحت إشرافها الدقيق أن يستخرجن لي بعض التناقضات التي لم أنتبه إليها. وهكذا استطعت أن أزيل بعض التجاعيد من النسخة الأصلية للكتاب وأقدمها كصيغة مستوية في شكلها النهائي.

أما الفريق الذي اشترك في هذا العمل فهو يتكون من السيدة فريدة غازي، والسيدة منصورة حيدر، والبروفيسور أمة المجيد شودهري، والسيدة صالحة صفي، والسيد منير الدين شمس، والسيد محمود أحمد ملك – الذي تولى طبع متن الكتاب على الحاسوب، والسيد منير أحمد جاويد. وتضم هذه الأسماء قائمة طويلة من أعضاء شرف.. كانوا من العاملين الممتازين الذين بذلوا أقصى جهدهم، والذين أدين لهم بأخلص الامتنان.

أصبح الكتاب معدا للنشر بعد انتظار كان يبدو بلا نهاية.. امتد على مدى عشر سنوات منذ بدايته الأولى في زيورخ. ولولا البروفيسور دوكينْز.. وهو عالم بريطاني بارز في علوم الحيوان ومؤلف الكتاب المشهور بعنوان: "صانع الساعة الأعمى".. لكان من الممكن نشر هذا الكتاب منذ وقت طويل. وفي الواقع.. لقد أعاد دوكينْز كتابة ما قاله دارون، مع المبالغة في الدفاع عن نظرياته بغرض إثبات عدم وجود أي إله سوى فكرة القانون الأعمى للانتخاب الطبيعي.

ولسوء الحظ.. تم لفت انتباهي إلى كتاب "صانع الساعة الأعمى" في وقت متأخر، بعد أن انتهيت تقريبا من إضافة اللمسات الأخيرة لكتابي. وكالمعتاد.. اضطررت لتأجيل النشر بسبب هذه المعلومات، إلى الوقت الذي أنتهي فيه من قراءة كتاب دوكينْز ودراسة حججه بعمق. وبعد أن تم هذا أضفت إلى الكتاب فصلا جديدا كاملا تناولت فيه النظرية التي توهمها البروفيسور دوكينْز عن خلق بغير خالق. ومن الواضح.. أن كل مخلوق يتطلب وجود خالق، فمن المستحيل الإيمان بوجود لوحة الموناليزا وإنكار وجود الفنان ليوناردو دافنتشي، ومع ذلك فقد كانت هذه تماما هي الغلطة الفاحشة التي ارتكبها دوكينْز. فبينما يؤمن بوجود الخليقة إذا به ينكر وجود الخالق، ويحاول بطريقة خرقاء استبدال الخالق بالانتخاب الطبيعي الذي ذكره دارون. وكان هذا أبعد ما يكون متوقعا منه وهو عالم الأحياء البارز، فقد كان من المفترض أن يعلم أن الآراء الدارونية ليست آراء خلاقة.

وسوف نتناول هذا البحث في فصل بعنوان: "صانع الساعة الأعمى.. الذي هو أيضا أصم وأبكم". ونرى أنه من المناسب أن نشير هنا إلى أن العنوان الذي اختاره البروفيسور دوكينْز لكتابه كان من الممكن أن يكون أكثر توافقا لو تم تغييره إلى: "السيد الخفاش صانع الساعة العظيم". فمن الواضح أن صانع الساعة الأعمى في كتاب البروفيسور دوكينْز ليس رجلا، وإنما هو مجرد فكرة. غير أن الأفكار المجردة لا تستطيع أن تصنع شيئا، ناهيك عن صنع ساعة. أما الخفافيش.. كما يصفها البروفيسور دوكينْز.. فهي أقدر على صنع الساعات، لأن لها عقلا، وتستطيع أن تسمع الأصوات بشكل لا يستطيعه حيوان آخر. وفي الواقع إنها تستطيع أن ترى في الظلمة الكاملة، وتستطيع

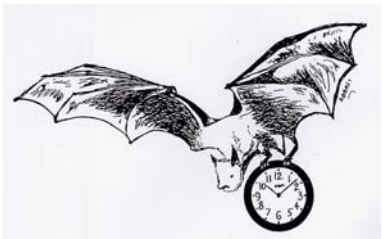

أن تُفرّق بين الترددات الصوتية المتناهية في الصغر التي لا تستطيع أن تميز بينها حتى أحدث الأجهزة الصوتية المتقدمة التي صنعها الإنسان. ويستطيع الخفاش أن يسمع أدق حركة لاصطكاك الأسنان وحركة لولب الساعة التي لا تستطيع أن تسمعها الأذن القديرة لصانع الساعات.

ونكتفي بهذا القدر عن عنوان الكتاب، غير أننا نجد أنفسنا في خلاف شديد معه، ولكننا نستميحه عذرا عندما نصف نظريته بأنها خالية تماما من أي مضمون، ومع هذا فإن البروفيسور دوكينْز يتمتع بشهرة واسعة في العالم أجمع، وذلك لأن معظم المعجبين به هم من بين أجيال العلماء الذين كانوا ملحدين أولا وعلماء بعد ذلك. ولا بد أنهم كانوا دائما في ذهول من الأسرار الهائلة الموجودة في الطبيعة، وانتابتهم الدهشة البالغة أنه كيف يمكن أن تكون قد خُلقت بغير مصمم حاذق ذي إدراك. ولعلهم وجدوا في شخص البروفيسور دوكينْز بطلهم المنشود بعد أن لوى أعناق الأمور بشكل متقن تماما، حتى إن بعض الدارسين المتقدمين في علوم الطبيعة أيضا قد خُدعوا وصدّقوا أن مشكلتهم قد وجدت حلا. ولكنه لم يخدع سوى أولئك الذين كانوا يريدون في أعماق أنفسهم أن يُخدَعوا. ولو أنهم اختبروا ما قدمه البروفيسور دوكينْز عن الانتخاب الطبيعي بعقول منفتحة وغير منحازة، لاستطاعوا بكل تأكيد أن يكتشفوا العيوب والتباينات والتناقضات التي تحتوي عليها أطروحته. ولعلهم أرادوا أن يجدوا ملتجأ في الغوامض التي خلقها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالله تعالى.

ونحن على خبرة بأولئك الذين لديهم تصميم مسبق على التمسك بعقائدهم في جميع مجالات المذاهب والمعتقدات. وكتابنا هذا ليس موجها لهؤلاء بشكل مباشر، ولا يحدونا أمل حقيقي في هدايتهم، وإنما يتوجه الكتاب إلى القارئ العام الذي لم يعقد العزم مسبقا على التشبث بعقيدة علمية أو غير علمية. إن نظرية التطور "قليلا قليلا" التي أعلنها البروفيسور دوكينْز ليست في الواقع مفاجئة، لأن دارون قد سبق وذكر نفس هذه

النظرية منذ عام ١٨٥٩ في كتابه القيّم: "أصل الأنواع"، حين تحدث عن التعقيدات الموجودة في العين كعضو من أعضاء الجسم. وهناك اعترف صراحة بأن الآليات شديدة التعقيد الموجودة في العين لا يمكن تفسيرها بنظريته الخاصة عن الانتخاب الطبيعي. وفيما يلي الاعتراف الذي صرّح به دارون في كلماته:

"إنني أعترف بوضوح، بأن فكرة أن الانتخاب الطبيعي هو الذي كَوّن العين بكل ما فيها من وسائل منقطعة النظير من أجل تعديل بؤرة النظر على مسافات مختلفة، ومن أجل إدخال الكميات المختلفة من الضوء، ومن أجل تصويب التحديب والزيغان اللوني.. هي فكرة باطلة عبثية بأعلى درجة".[١]

وبعد أن اعترف بهذا اتخذ لنفسه سبيلا للانسحاب باختراع نظرية "قليلا قليلا" التي أصبحت الآن الدعامة التي تقوم عليها حجج البروفيسور دوكينْز تأييدا لاعتبار أن الانتخاب الطبيعي هو الخالق الوحيد. غير أن نظرية دارون في التطور "قليلا قليلا" تقوم على افتراضات ثبت أنها خاطئة تماما، وليس لها قيمة باعتبارها غير بناءة. وهكذا راح دارون يقول بعد الاعتراف الأمين الذي صرح به فيما سبق:

"ومع ذلك فإن العقل يخبرني بأنه إذا كان من الممكن إثبات وجود تدرجات متعددة من العين الكاملة فائقة التعقيد إلى عين معيبة غير تامة بسيطة التركيب، وكل تدرُّج من تلك التدرجات كان مفيدا تماما للكائن الذي يملكها؛ وبالإضافة.. إذا كانت العين تتغير ولو قليلا من جيل إلى جيل، وكان من الممكن توارث هذه التغييرات، كما هو الحال بالتأكيد؛ وإذا كانت التغييرات أو التعديلات في هذا العضو مفيدة للحيوان تحت ظروف الحياة المتغيرة، فحينئذ تكون صعوبة كون العين كاملة الإتقان شديدة التعقيد من نتاج الانتخاب الطبيعي، أمرًا يمكن بالكاد اعتباره صحيحا، رغم أن خيالنا لا يستطيع تصوره".[١]

وعلى هذا.. فإن نظرية التطور "قليلا قليلا" المبالغ في أهميتها قد سبق أن ذكرها دارون نفسه، وكان ذلك يتعلق أيضا بالعين حصرا. ولكن ها قد ثبت خطؤه، في ضوء البحوث الحديثة للعلماء.. التي كشفت عن آليات متقدمة في عيون العيّنات الأثرية الأولية بالغة القدم.

وقد كشفت دراساتهم لأعماق البحار أن عيّنات العيون بالغة القدم، والتي وُجدت في الحفريات القديمة من الحياة المائية كانت تحفة فنية من الأجهزة البصرية التي تثير حيرة ودهشة صنّاع أكثر آلات البصريات تقدما وحداثة. وليس هذا مكان الدخول في مناقشة مفصلة للموضوع، ولكننا نحيل القارئ إلى مقالة بعنوان: "عيون الحيوان ومرايا البصريات"[٢]، لمؤلفها مايكل ف. لاند، والمنشورة في مجلة: *Scientific American* منذ عشرين عاما قبل أن ينشر دوكينْز كتابه. ونحن نلفت أنظار القارئ إلى صفحة رقم ٩٣ بالذات من هذه المقالة التي تصف عين حيوان *Gigantocypris* . إن معجزة خلق عينيه الفريدتين مع عاكستين في منتهى الدقة، بدلا من العيون الكروية المعتادة التي تحتاج إلى عدسات لتركيز بؤرة البصر، إنما هي أعجوبة من درجة عليا. وهذا هو بالضبط ما كان مطلوبا في عالم الظلام في أعماق المحيط التي يعيش فيها هذا الحيوان. إذ أنه يحتاج إلى الاستفادة من أقل ضوء يمكن أن يوجد على حافة الظلام التام. ولم يكن من الممكن حدوث هذا لو لم يسبق ذلك وجود مدبّر عليم قدير ذي خبرة كاملة.. يمكن له أن يصمم ويصنع هـــذه الآلة التي -رغم بدائيتها- تعتبر بحق آلة بصرية في منتهى الدقة. وتغطي المقالة بأكملها العديد من الأمثلة الحقيقية للعيون الخلابة لبعض الحيوانات القديمة، والتي صُنعت من أجل تحقيق أغراض معينة، وكل منها يهدم تماما ويحطم إلى أهباء تذروها الرياح تلك النظريات عن التطور "قليلا قليلا" التي يقول بها البروفيسور دوكينْز، وتلك التي لأستاذه الكبير شارلس دارون. ونحن لم نذكر كل هذا في كتابنا الممتلئ مسبقا بأمثلة شبيهة، ولكن حيث إننا قد

أشرنا هنا إلى رأي دارون الافتراضي في حق نظريته عن التطور "قليلا قليلا" فيما يختص بتركيب العين، فإن هذه الإشارة تصبح بالضرورة مناقضة لما افترضه. وإن قراءة تلك المقالة بتمعن سوف يقنع حتى أشد المتشككين من أصحاب مذهب الطبيعة الخالقة.. أن ما يدخل في صنع العين أكثر كثيرا مما يمكن أن تراه العين. ولكن إذا كان التشكك يقوم على تصميم في التحيز للرأي المسبق، فلا شيء يمكن عمله عند ذاك. ونرجو أن يساعد الفصل الذي كتبناه عن الكتاب الشهير للبروفيسور دوكينْز أولئك الذين لم يتفقوا معه في الرأي، ومع ذلك كانوا متأثرين به جدا بسبب صيته وشهرته.

ونحن نطلب من العالم وغير العالم على السواء أن لا يكتفي بقراءة الفصل عن كتاب البروفيسور دوكينْز فحسب، وإنما يقرأ كتابنا بأكمله الذي دُوِّن قبل كتابه. وسيجد القارئ.. حتى بغير ذكر كتابه على الإطلاق.. أن كتابنا قدّم الإجابات المرْضية لجميع الأسئلة التي أثارها البروفيسور. غير أن الموضوع العام للكتاب أوسع كثيرا من المناقشة المحدودة التي أشرنا إليها عاليه. وهو يتعلق بالمعالجة القرآنية لجميع الأمور التي يضمها الكتاب – وهي معالجة خلابة وعقلانية في نفس الوقت حتى إنها تذهل عقول أهل الرأي. وهذا ما يجدر بالقارئ أن يركز انتباهه عليه. وفي هذا الطريق قد يلتقي القارئ أيضا غوامض الحياة والحلول التي قدمها القرآن لهذه الغوامض.

إننا نَعد القارئ بأنه سوف يستمتع بقراءة هذا الكتاب، وسوف تساعد دراسته على وُلوجه إلى العتبة الكريمة لمولاه – الخالق.. رب العالمين.